العلاقات المملوكية – المغولية
في عهد سلطنة الناصر محمد المملوكي
في ضوء رواية بيبرس الدودار ضمن كتابه مختار الأخبار

م.د. زاهدة محمد طه المزوري*

تاريخ التقديم: 2009/10/11 تاريخ القبول: 2009/12/31

المقدمـــة

على الرغم من تعدد الأبحاث والدراسات التي تناولت عصر السلطان الناصر محمد المملوكي الذي شمل حكمه ثلاث حقب بِداء من تاريخ سلطنته الأولى (693–694هـ /1293–1294م) والثانية التي امتدت بين(698–708هـ/1298–1308م) والثالثة الممتدة(709–741هـ/1309–1340م)، إلا أن هناك العديد من الجوانب التي تتعلق بمعطيات سلطنته في الحقب المذكورة ما تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والتمحيص.

وتمثل دراسة موضوع العلاقات المملوكية–المغولية أحد أبرز تلك الجوانب التي يمكن الخوض في تفصيل وقائعها من خلال أحد أبرز مؤرخي تلك الحقبة وهو الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري المعروف الدودار، والذي كان يعد من أرباب الدولة المملوكية عاصر مشاهير سلاطين المماليك البحرية أمثال الظاهر بيبرس(658–676هـ/1258–1277م) وابنه الملك السعيد(676–678هـ/1277–1279م) والمنصور قلاوون(678–689هـ /1279–1290م) والأشرف خليل(689–693هـ/1290–1293م)، فضلا عن الناصر محمد، وحضر كبرى المعارك العسكرية التي خاضها المماليك مع المغول والصليبين آنذاك، فضلا عن مشاركته بحكم توليه نيابة السلطنة بمصر في عهد سلطنة الناصر محمد الثا لثة

* كلية التربية الأساسية/ جامعة دهوك.

باتخاذ قرارات سياسية هامة، لذلك عُدت مؤلفاته عامة ومؤلفه (مختار الأخبار)على الخصوص من أهم المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ تلك الحقبة، فمن خلال(مختار الأخبار) يقدم بيبرس الدودار روايات فريدة عن طبيعة الأوضاع السياسية ؛ سواء الداخلية أو الخارجية في عهد السلاطين الذين عاصرهم، لاسيما في عهد سلطنة الناصر محمد، فهو يسلط الضوء على بعض الجوانب التي تكشف الـنقاب عن طبيعة العلاقات المملوكية –المغولية في عهد سلطنة الأخير ، فضلا عن المراسلات التي جرت بين السلطان الناصر محمد ومحمود غازان حاكم المغول الايلخانات قبيل خوض معركة مرج الصفر.

وتكمن أهمية "مختار الأخبار "في كونه يستعرض جوانبَ مفصلة عن سيرة حياة مؤلفه– بيبرس الدودار – وتدرجه في مناصب الدولة منذ بداية دخوله الديار المصرية وحتى اعتقاله في قلعة الكرك عام (712هـ/1312م)، ومن هذا المنطلق يعد كتاب(مختار الأخبار) مصدراً موثوقاً للمعلومات لمن جاء بعده من مؤرخي العصر المملوكي.

التعريف بالمؤلف:

تتباين المصادر ا لتاريخية من حيث الأهمية وذلك تبعا لقدرة مؤلفها وحضوره في سياق الأحداث ؛ لاسيما إذ كان المؤلف أحد الشخصيات المعاصرة للوقائع مثل المؤرخ ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري[1] الخطائي المعروف باسم بيبرس الدوادر الذي ولد حوالي(645هـ/1247م)[2].

---

(1) سمى المنصوري نسبة إلى الملك المنصور سيف الدين قلاوون.

(2) الدودار: لقب يطلق على الذي يتولى مهمة تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغه عامة الأمور والقصص، وتقديم البريد، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب، ينظر: أبو العباس احمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا،تحقيق:محمد حسين شمس الدين،(بيروت،دار الكتب العلمية،1987) 4/9-10.

أخذ بيبرس الدوادر يطرق أبواب التاريخ بعد سنوات قليلة من دخوله الديار المصرية في عام (659 هـ/ 1260م)، برفقة الطواشي [1]مجاهد الدين قايماز الموصلي خادم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهو ما يزال فتى لم يتعدَ الخامسة عشرة من عمره [2]، ليدخل في خدمة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي [3]، إذ كان الأخير قد اشتراه من قايماز الموصلي وألحقه بخدمته واعده ليكون من كبار مماليكه، فاخذ بيبرس الدودار يتدرج في المراتب في عهد سلطنة المنصور قلاوون حتى أصبح في عام (682هـ/ 1283م) من جملة أمرائه [4]، وبعدها بسنة أصبح أمير طبلخاناة [5]، ثم ترقى لمنصب أمير مائة [1]، وفي عام

(1) الطواشي:وجمعه طواشية، وهم الخصيان اللذين استخدما في الطباق المملوكية، وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ويعد شيخهم من أعيان الناس. ينظر: أحمد بن علي المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،تحقيق:سعيد عبد الفتاح عاشور،(القاهرة،دار الكتب،1956)، 219/4.

(2) بيبرس المنصوري،مختار الأخبار، تحقيق:عبد الحميد صالح حمدان،ط 1،(د/م،الدار المصرية اللبنانية،1993)، ب.

(3) قلاوون الألفي: مملوك جاب من بلاد القفجاق إلى مصر، فاشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي أحد مماليك الملك العادل أبو بكر أيوب بألف دينار فعرف لذلك بالالفي. ولما مات الأمير علاء الدين انتقل قلاوون وعدد من المماليك الى خدمة الملك الصالح، وأصبح من جملة المماليك البحرية الصالحية. ينظر: عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد، الاعلاق الخط يرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة، (دمشق، 1978)، 687/2/3.

(4) خير الدين الزركلي، الأعلام،(بيروت،دار العلم للملايين،1979)،59/2.

(5) طبلخاناة: أمراء يأتون بالدرجة الثانية في الترتيب العسكري المملوكي، ونصيب كل منهم في جيش السلطان أربعون فارسا، وقد يزيد إلى سبعين وثمانين وحسب إقطاعه، وليس لأمر الطبلخاناه عدد معين، إذ يجوز أن ينقص عددهم بتفريق أمراء الطبلخاناه إلى إمرتي عشرين أو أربعة عشرات، ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 15/4.

(685هـ/ 1286م) تولى نيابة الكرك [2] واستمر في نيابتها حتى (690هـ/1290م) حين طلب من السلطان الأشرف خليل إعفاءه من نيابة الكرك وضمه لركابه، فوافق السلطان الاشرف وعين الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي نائبا عن الكرك بدلا عنه [3].

وفي عهد سلطنة الناصر محمد الأولى أصبح بيبرس الدودار في عام(693هـ/1293م) من أمراء المئتين ومقدمي الألوف [4]، ثم أصبح فيما بعد ناظرا على ديوان الإنشاء [5] في مصر ، وجاء في منشور التعين السلطاني عن بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار) أنه"...**كان المجلس العالي الأميري الأعالي الأجلي العالمي العادل العضدي النصيري الذخري الظهيري الركني عز**

---

(1) أمير مائة: أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك وهو في الوقت نفسه مقدم على ألف جندي من أجناد الحلقة في وقت الحرب، وكان هؤلاء يشغلون المناصب الرئيسة في البلاد ومنهم ينتخب السلطان. ينظر: المقريزي، السلو ك 239/2/1.

(2) الكرك:قلعة حصينة في أطراف الشام من نواحي البلقاء قرب الكرك.ينظر: ياقوت بن عبد الله الحموي،معجم البلدان ،ط2(بيروت،دار صادر،1978)، 37/3.

(3) المقريزي، السلوك، 85/3؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،(مصر،د/ت)، 263/9

(4) تقدم تعريف أمراء المئة ومقدم ألف. ينظر: هامش رقم(7).

(5) ديوان الإنشا : من المناصب الكتابية العالية في عصر المماليك ويعد الخطوة الأولى إلى الوزارة، وكان رئيس ديوان الإنشا يسمى كاتب الدست؛ لكتابته على الدست أو الدرج الذي بين يدي السلطان. وكان عمل صاحب ديوان الإنشا مهم ويحلف عند توليته يمينا أمام السلطان، ويساعده كتاب عديدون، ويشبه ديوان الإنشا إلى حد ما وزارة الخارجية في يومنا هذا. للمزيد ينظر :. إبراهيم يسن الخطيب ، النظم الإسلامية (عمان ، الأهلية للنشر والتوزيع ،1989)،55؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك و رسومهم في مصر ، (القاهرة، مكتبه الانجلو المصرية ، 1964)56؛ حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ، 145. (القاهرة 1962) 145.

الإسلام والمسلمين، شرف الأمراء في العالمين ذخر الغزاة لسان الدولة سفير المملكة عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدودار الملكي المنصوري الناصري، ضاعف الله نعمته وسعادته هو بيت هذا القصيد وواسطة هذا النضيد ". كما أشار المنشور إلى مكانة بيبرس الدودار ككاتب بقوله:

"**والذي أومأ إليه بنان هذه المدايح وتغني بوصف مناقبه الغادي والرايح، إذا ذكرت البلاغة فهو إمامها أو الكتابة فبيده زمامها، وأنّ امتطت أنامله جواد القلم فهو به المجيد أو الكتابة فبيده زمامها**"[1].

بيد أن بيبرس الدودار تقلد ذروة مناصبه عندما عينه السلطان الناصر محمد في عهد سلطنته الثالثة منصب نيابة السلطنة في مصر عام (711هـ/1311م)[2]، إلا أن الأخير ما لبث أن غضب عليه نتيجة الوشاية به في كونه كان من بين الأمراء الذين مالوا إلى الأمير شمس الدين قراسنقر نائب الشام الذي كان قد تمرد في الشام ضد السلطان الناصر محمد [3]، فقبض عليه واعتقله في الكرك عام (712هـ/ 1312م)[4].

وبهذا الصدد نلاحظ أن المصادر التاريخية تختلف في تحديد مصير بيبرس الدودار، فهناك من يشير إلى أن الأخير بقى في سجنه بالكرك حتى وافته المنية عام (725هـ/ 1324م)[5]، وهناك من يذكر أن الناصر محمد عاد وأفرج عنه في عام(717هـ/ 1317م) أي بعد أن أمضى خمسة سنوات في السجن[6].

---

(1) مختار الأخبار،ص ح من المقدمة.

(2) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي،ذيل تاريخ الإسلام، تحقيق:عمر عبد السلام تدمري،(بيروت،دار الكتاب العربي،د/ت)،.234.

(3) للمزيد حول تمرد قراسنقر على الناصر محمد ينظر: زاهدة محمد طه المزوري،الصراع على السلطة في العصر المملوكي الأول في مصر وبلاد الشام،رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل،111،2002–113.

(4) المقريزي، السلوك،85/3؛ ابن تغري بردي،النجوم،263/9.

(5) ينظر ابن تغري بردي،النجوم،263/9؛ الزركلي، الأعلام،59/2.

(1) ينظر بيبرس المنصوري،مختار،ي؛الذهبي،ذيل تاريخ،234.

إن المصادر التاريخية التي تناولت ذكر بيبرس الدودار تكاد تجمع على علو مكانته في الدولة المملوكية فقد وصفه المؤرخ المقريزي(ت845هـ/1441م) بأنه:"**كان عاقلا كثير البر** "[1]، كما أكد ابن تغرى بردي (ت 874هـ/1469م) ذلك بقوله انه:" **كان عاقلا فاضلا معظما** "[2]. في حين وصفه ابن إياس (930هـ/1523م) انه :"**كان عالما فاضلا فقيها نحويا، ينظم الشعر، وله شعر جيد**" [3]، أما الحنبلي (ت 1089هـ./1678م) فقد كان أكثر تفصيلا من الآخرين مشيرا إلى أن الدودار :"**كان عاقلا وافر الهيبة كبير المنزلة...كثير الأدب حنفي المذهب قد أجيز بالإفتاء والتدريس وله يد ومعروف ؛ كثير الصدقة سرا ويلازم الصلاة في الجماعة وغالب نهاره في سماع الحديث والبحث في العلوم وليله في القرآن والتهجد مع طلاقة الوجه ودوام البشر** "[4]، كما يضيف الذهبي (ت748هـ/1347م) إلى مكانة بيبرس الدودار عند السلاطين المماليك حين يمدحه بأنه كان"**كبير المنزلة عند السلطان، وكان السلطان يقوم له ويأذن له في الجلوس**"[5].

أهمية مختار الأخبار بالنسبة للمصادر المعاصرة:

لم يحظ مؤلف بيبرس الدودار (مختار الأخبار) باهتمام المؤرخين المحدثين على غرار مؤلفات الدودار الأخرى مثل كتابيه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و (التحفة الملوكية في الدولة التركية) والذي تكاد تخلو منه قوائم مصادرهم، وربما يعود ذلك إلى ما حدث من التباس بنسبة هذا الكتاب إلى كاتب ديوان الدودار المدعو القبطي القس الشمس ابن كبر اعتمادا على ورود اسمه في مقدمة المؤلف بقوله

---

(2) ينظر: السلوك،85/3.

(3) ينظر: النجوم،263/9.

(4) ينظر: محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،تحقيق:محمد مصطفى،(القاهرة،1982)،408/1.

(5) ينظر: أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي،شذرات الذهب في أخبار من ذهب،(د/م،دار الفكر،د/ت)،66/6.

(6) ينظر: ذيل تاريخ،234.

:"**هذا مختصر تاريخ المقر الركني بيبرس الدودار تغمده الله برحمته ويسمى مختار الأخبار عنى بجمعه القس الشمس ابن كبر نيح الله روحه**"[1]، وربما يعود ذلك الالتباس إلى دور ابن كبر في نسخ الكتاب وتبيضه. أو إلى تأخر طبع ودراسة المخطوط.

ومن جهة أخرى فإنّ عدم ورود عنوان الكتاب (مختار الأخبار) ضمن مصنفات بيبرس الدودار جعل محقق الكتاب د.عبد الحميد صالح حمدان يحاول معالجة تلك القضية – والتي يقف حائرًا أمامها – إذ تارة يشك في حدوث التباس في عنوان كتاب (مختار الأخبار)، وفي أن الكتاب ربما يكون نفس عنوان كتاب (اللطائف في أخبار الخلائق) والذي كان السخاوي (ت 902هـ/1496م) قد نسبه إلى بيبرس الدودار، وتارة أخرى يحاول – وأمام التشابه الواضح في أسلوب المؤلف وطريقة سردهالأحداث– أن يلفت الانتباه إلى أن (مختار الأخبار) ربما يكون مجرد مختصر لكتاب بيبرس الدودار (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)[2]؛ الذي كان يتضمن أحد عشر جزء، ويعد من أهم أعمال الدودار لكونه يتناول بشيء من التفصيل مجمل الوقائع السياسية والعسكرية للفترة التي تطاول فيها المغول على الشرق الأوسط في العصور الوسطى، وامتدت مطامعهم إلى مصر والشام بغية السيطرة عليها، والواقع فإن أوجه التشابه بين الكتابين (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و(مختار الأخبار) تتمثل بالتشابه بين محتويات الكتابين وتناول المواضيع؛ مع اختلاف وتباين في إتباع منهج البحث لاسيما فيما يتعلق بالاختصار الذي امتاز به الدودار في كتابه (مختار الأخبار) من حيث معالجة الوقائع والأحداث السياسية والعسكرية مقارنة بتفصيلها في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة).

وبالرغم من تلك الاجتهادات التي تناولت عنوان الكتاب ونسبته إلى بيبرس الدودار، فإنّ ما أورده المؤلف في مقدمته يجزم بنسبته إليه، وأهمية ذلك الكتاب

(1) بيبرس المنصوري،،مختار،ص ك من المقدمة.

(2) المصدر نفسه،ص ك–ل من المقدمة.

يكمن في كونه مصدرا أساسيا آخر من المصادر التي تناولت تاريخ الدولة المملوكية، تمكن مؤلفه بيبرس الدودار بحكم معاصرته للأحداث –كما تقدم– لكبار سلاطين المماليك ، ومشاركته في المعترك السياسي والعسكري بحضوره كبرى المعارك التي خاضتها الدولة الملوكية آنذاك مثل مشاركته في معركة حمص الثانية عام (680هـ./1281م)، في عهد المنصور قلاوون، وفتح عكا في عام(690هـ/1290م)، وقلعة الروم عام (691هـ/1291م) في عهد سلطنة الأشرف خليل، ومعركة مرج الصفر عام (702هـ/1302م) في عهد سلطنة الناصر محمد أن يكون مرجعا ثبتا وشاهدَ عيانٍ لمجريات تلك المعارك التي دوَّنها بصدق وأمانة في مؤلفاته. هذا فضلا عن منزلته على صعيد المعترك السياسي بفضل تدرجه في المناصب التي كانت ذات حظوة ونفوذ في البلاد، لاسيما في عهد سلطنة الناصر محمد الذي قلده رئاسة ديوان الإنشا[1] ومنصب نيابة السلطنة في مصر فيما بعد.

وعلى وفق ما مر فقد كان بيبرس الدودار مطلعا على أسرار الدولة وخفايا الأمور السياسية والعسكرية؛ فشارك في اتخاذ قرارات هامة في الدولة، وهذا ما جعلهمن ثمَّ أهم مؤرخي تلك الحقبة التي عاصرها وهي فترة مفعمة بالوقائع والأحداث[2]. ورغم أن كتاب(مختار الأخبار) قد امتاز بين مؤلفات بيبرس الدودار الأخرى بطابع الاختصار في سرد بعض وقائع الأحداث التاريخية – وربما يعود ذلك إلى رغبة الدودار في تجاوز رواية الأحداث التي فصلها في كتابيه(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و (التحفة الملوكية في الدولة التركية) ، والتشديد على رواية الأحداث التاريخية التي لم يُشِرْ إليها في مؤلفيه – فإنّ مؤلَفه هذا قد انفرد في كثير من الأحيان بإيراد نصوص والتصريح بحقائق تاريخية مهمة عن تلك الحقبة لا يمكن تجاوزها في دراسة تاريخ الدولة المملوكية، بل أن مؤلفات بيبرس الدودار عامة كانت تعد موثقة لا غنى عنها لمن جاء بعده من مؤرخي تلك الحقبة أمثال

(1) جرى الحديث عن صلاحيات مسؤول ديوان الإنشا في هامش رقم 12.

(2) يوسف درويش غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الأردن، ط 2،(عمان،دار الفكر،1982)،11.

المقريزي وبدر الدين العيني (ت855هـ/1451م) وابن تغري بردي وابن إياس، لأنّ مؤلفه قدم بصدق وأمانة ما عاينه وشاهده في زمنه من أحداث.

التقلبات السياسية في عهد بيبرس الدودار:

عاصر بيبرس الدودار التقلبات السياسية التي شهدتها الدولة المملوكية في عهد سلطنة الناصر محمد الثانية(698–708هـ/1298–1308م)، وقد تمثلت تلك التقلبات بحملتي محمود غازان ايلخان المغول للسيطرة على بلاد الشام [1]. وتكمن أهمية مؤلفات بيبرس الدودار في كونه دوّن الأحداث التي شهدتها المنطقة في كتبه الثلاثة (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية) و(مختار الأخبار).

بيد أن ما دونه في كتبه الثلاثة تتباين تبعا لمعطى مساهمته في تلك الأحداث، لذلك كان ما دونه في معركة (الخزندار) أو ما تعرف(مجمع المروج) اختلف عنه عما دونه عن معركة (مرج الصفر)، ففي المعركة الأولى (الخزندار) كان الدودار مؤرخا دون مجريات معركة وفق ما نقله إليه المشتركون فيها، على خلاف ما دونه في المعركة الثانية (مرج الصفر) ال ذي بدت كتاباته عنها أكثر تفصيلا من الأولى ، بوصفه كان أحد المشاركين في المعركة، فدون على وفق ما عاينه وشاهده عن مجريات الأحداث والمواقف في تلك المعركة.

(1) دخل ملك المغول غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو في الإسلام عام (694هـ/1294م) وتلفظ بالشهادتين بإشارة نائبه نوروز وفشا الإسلام بين المغول.ينظر: علاء الدين علي بن عبد الله بن عبد الظاهر،الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر،تحقيق:عمر عبد السلام تدمري، (بيروت،المكتبة العصرية، 2005)،7.للمزيد ينظر:علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ط3، (القاهرة،مكتبة النهضة المصرية،1967)،145.

معركة الخزندار:

في معركة (الخزندار) أو ما تسمى (مجمع المروج) والتي وقعت في وادي الخزندار شرق حمص قرب سلمية في 27 ربيع الأول عام (699هـ/1299م)، فإنّ ما دونه بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار) عنها استند على ما نقله إليه الأمراء الذين خاضوا غمار المعركة ؛ لأنه لم يكن من المشتركين فيها، إذ يشير بيبرس الدودار في مؤلفه أنّه كان نائبا عن السلطان الناصر محمد في قلعة السلطنة، لذلك استند ما دونه – على وفق تصريحه – على ما نقله إليه الأمير سيف الدين بلبان السلحدار[1] المنصوري المعروف بالطباخي نائب حلب الذي كان في ميسرة الجيش المملوكي عن سير مجريات المعركة[2]. وهذا ما يعكس بوضوح طابع الاختصار الذي غلب على ما دونه بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) عن تلك المعركة؛ حتى أنّه لا يخوض كغيره من المؤرخين المعاصرين له في تفصيل دور الأمير سيف الدين قبجق المنصوري [3] نائب دمشق ... وبعض

---

(1) السلحدار: : لقب يطلق على الأمير الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ، وصاحبه هو المقدم على السلحدارية من المماليك السلطانية والمتحدث في السلاح خانة السلطانية، وما يستعمل لها ويقدم إليها، ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدمين. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 9/4 .

(2) مختار الأخبار،111.

(3) قبجق المنصوري أصله مغولي كان قد وقع في الأسر في نوبة الابلستين لما دخلها الظاهر بيبرس سنة (645هـ/1247م) فأعطاه للمنصور قلاون، وكان المنصور يتفرس فيه الميل إلى المغول، لذلك لم يكن يجرده معه في حملاته، وفي عهد سلطنة المنصور لاجين ولى نيابة الشام عام (696هـ/ 1296م)، إلا أن الأمور ساءت بينه وبين المنصور لاجين، فهرب إلى غازان بعد أن علم أن السلطان لاجين قد دس عليه من يسمه . والتحق بالمغول، واقطعه غازان همذان وأعطاه عشر آلاف وأكرم من معه. ثم لما رجع غازان جعل إليه نيابة الشام. ثم أعطي نيابة حماة بعد ذلك فباشرها في سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير. فلما عاد الناصر من الكرك لاقاه ودخل معه مصر فقلده نيابة حلب في شوال عام (709 هـ/1309م) فلم يزل بها إلى أن مات في عام (710 هـ/1310م) وكان بطلا

الأمراء الآخرين الذين هربوا في عهد السلطان لاجين المنصوري (696-698هـ/1296-1298م) إلى سلطان المغول غازان[1]، وقيامهم بتحريض الأخير على غزو الشام وتصويرهم لحقيقة الأوضاع الداخلية في دولة المماليك البحرية نتيجة انشغال الأمراء بخلافاتهم وبالتالي تصوير وكشف قدرات الدولة العسكرية[2]، على غرار ما أورده في مؤلفه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) [3]؛ وإنّ كان ذلك التحريض قد لقيَ هوى في نفس غازان الذي كان يتحرق شوقا لغزو الشام وضمها إلى حدود بلاده، بل أن حدود استعدادته العسكرية تجاوزت ما هو أبعد من ذلك؛ إذ يشير المستشرق البريطاني وليم موير إلى: أن تحمس غازان لغزو بلاد الشام قاده إلى فكرة البحث عن ضمان لنجاح حملته وتتويجها بالنجاح؛ من خلال مساعيه في بعث الوفود إلى البابا والبلاطات الأوربية؛ ملتمسا منهم مد يد العون والمساعدة، إلا أن طلبه قوبل بوجه عام بالفتور والرفض[4].

ورغم طابع الاختصار الذي غلب على رواية بيبرس الدودار في معالجته لمعطيات أحداث المعركة من حيث عدم تناوله لتفصيل وقائع سير العمليات

شجاعا عارفا جيد الرأي قليل الطمع. للمزيد ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة. ابن حجر العسقلاني 2/ 425 – 424.

(1) ينظر إسماعيل ابن كثير الدمشقي،البداية والنهاية،(د/م،د/ت)، 2/13؛؛ابن تغري بردي،النجوم،8/119الحنبلي،شذرات الذهب،5/44.

(2) غوانمة،التاريخ السياسي،147-148.

(3) ينظر:زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة،تحقيق:دونالد.س.ريتشارد،(بيروت،1998)،331.

(4) يشير أيضا موير في هذا الصدد أنّ فتور الغرب المسيحي في مد يد العون والمساعدة الى غازان لم يمنع الأخير من الاستمرار في إرسال الوفود إلى إنكلترا وفرنسا حتى عام(1302م)، وفي أنّه ما تزال إلى الآن رسالة موجودة في إنكلترا يشكو فيها الأخير مر الشكوى من تقاعس الغربين عن مؤازرته.للمزيد ينظر: w.muir,the mameluke or salve dynasty of Egypt,(London,1896),p.69-70. كذلك ينظر:
A.P.Newten, Trade and travelers of the middle ages, (London,1930) pp.138-139

العسكرية إلا أن روايته ألقت ضوءا جديدا على أحداث تلك الحقبة من حيث تقديم تفاصيل واحدة عن الإحداث الداخلية التي كانت وراء هزيمة المماليك في معركة الخزندار، بِد ءاً من تفصيل حالة الإعياء الذي أصاب القوات المملوكية حال إقبالهم إلى مجمع المروج في وادي الخزندار والتي تقع بين حماة وحمص بقوله :"**اذا قاربت العساكر الوادي المذكور بعد ركض شديد، وسير عنيف، وعطش كاد يهلكهم ويهلك خيلهم...وقد أعيت الخيول من ثقل العدد**"[1].

وقد سعى بيبرس الدودار في روايته عن معركة الخزندار إلى تخفيف تصوير واقع هزيمة المماليك في الخزندار من خلال اختصاره وقائع المعركة نقلا عن الطباخي في مؤلفه(مختار الأخبار) في قوله :"**انه حال إقبالهم (المغول) إلينا حملنا عليهم حملة انزووا لها، وانقلبوا إلى القلب الذي لهم، فلما رأى غازان ذلك، انهزم راجعا، ثم تحامل التتار وحملوا، وقضى الله أن جاءت ميسرة التتار على ميمنة العساكر فانكسرت، وأحاطوا بالسلطان والقلب، وفوقوا نحوهم السهام، فكانت كالشمس إذ ترمى السهام، فولى المسلمين الأدبار منهزمين، واستولى التتار على الأثقال، ونهبوا الخيول والجمال، وكانت فادحة شديدة على الإسلام، ونائبة عظيمة نابت الأنام**"[2].

وفي الوقت الذي عمد مؤرخي المماليك أمثال المقريزي – أحد ابرز مؤرخي مصر في العصر المملوكي – إحالة تلك الهزيمة إلى عاملين **الأول:** دور قبجق في تشجيع غازان على مواصلة القتال رغم الخسائر التي منى بها قوات الأخير. و**الثاني:** إلى عدم التكافؤ العددي بين قوات المغول التي بلغت مائة ألف مقارنة بقوات المماليك التي لم تتجاوز بضعة وعشرين ألفا[3]. فإننا نجد أن بيبرس الدودار – بحكم كونه من أرباب الدولة المملوكية آنذاك – حاول الإعراض عن الخوض في تفصيل دور العامل الرئيس وراء هزيمة الجيش المملوكي في الخزندار

(1) مختار الأخبار،111.

(2) المصدر نفسه،111.

(3) ينظر: السلوك،2/319-320.

ألا وهو البحث عن دور ضعف الخطة العسكرية للمماليك [1]، وهو في ذلك لا يشير إلى دور الأميرين سيف الدين سلار نائب السلطنة بمصر وبيبرس الجاشنكير استاذ دا ر[2] السلطان في التخطيط للمعركة، لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن السلطان الناصر محمد كان قد وقع تحت تأثير هذين الأميرين في فترة سلطنته الثانية[3]، بل نلاحظ أن بيبرس الدودار يحاول في مؤلفه(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) تبرير انسحاب الناصر محمد وأمرائه، لاسيما سلار وبيبرس الجاشنكير من المعركة بعد أن منى الجيش المملوكي بالهزيمة بعد فترة وجيزة من بدء العمليات العسكرية في الخزندار بالدفاع عن قرار السلطة المملوكية التي مثلها الأخيران بقوله:"**ورجع السلطان ومن معه بفكره وتثبت وكان الصواب في رجوع الصدور وولاة الأمور لما رأوا العساكر مفلولة والأيدي عن التمكن من العدو مغلولة ولو تربصوا في ذلك الوقت لكان نوعا من الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة وسببا لفساد المملكة وموجبا لعدم الرؤوس الذين بهم تقوم الأبدان والدعائم الذين بهم تشيد الأركان**"[4].

وفي مصر يشير بيبرس الدودار إلى أنّه – في بدء الأمر – كتم عن أهالي مصر خبر هزيمة الجيش المملوكي وأشاع أنباء انتصارات المماليك، ويعلل ذلك بأنّه أراد تجنب"**ما لعلل السواد يثيرونه من فساد وفتنة**"، في الوقت الذي كان فيه الناصر محمد قد انسحب بمن معه من الأمراء إلى مصر يتبع هبقية فلول الجيش المنهزم، والذي يذكر بيبرس الدودار أنّه لاقى الأمرين بسب الانتهاكات

(1) للمزيد ينظر:غوانمة،التاريخ السياسي،148.

(2) استاذ دار: لقب يطلق على الأمير الذي يتولى الأشراف على شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خانا والحاشية والغلمان، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوي وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة: واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه، وربما نقص عن ذلك ينظر: القلقشندي/صبحي الأعشى، 21/4.

(3) ينظر المزوري،الصراع على السلطة في العصر المملوكي الأول،98وما بعدها.

(4) ينظر زبدة الفكرة،331.

التي تعرضوا لها على أيدي سكان الجبال ومن ثم الأعراب في غزة، لاسيما القوات التي سكنت ساحل طرابلس خشية ملاحقة المغول لهم، ذلك الانتهاك الذي كان على حد قول بيبرس الدودار "**على العساكر اشد نكاية من التتار**"[1].

أما فيما يتعلق بالتقلبات السياسية التي أعقبت معركة الخزندار، فإنّ بيبرس الدودار يكاد يتفق مع المؤرخين المعاصرين في أن غازان استغل انتصاره في وادي الخزندار وزحف بقواته إلى دمشق[2]، وأمام ذلك اضطر أهالي دمشق إلى إرسال وفد من علمائها إلى غازان لطلب الأمان كان يتقدمهم الإمام ابن تيمية (ت 728هـ/ 1327م)، فأجاب غازان الوفد ومنحهم الأمان وقلد قبجق نيابة دمشق[3].

ثم يشير بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) إلى أن القوات المغولية زحفت"... **إلى صفد وبيسان وغزة والأغوار ، ونهبوا جميع هذه البلاد، وأخذوا أموالها وغلالها ومواشيها، و أسروا شاباتها وشبانها، وفتكوا بالمسلمين والمسلمات وهتكوا المستورات والمحصنات، وأغاروا على القدس الخليل، وقتلوا من وجدوه من المسلمين والنصارى، وشربوا في الحرم، واستحلوا كل محرم، وسبوا خلقا كثيرا، واخذوا من النساء والصبيان جما غفيرا، وأقاموا هناك يترددون**

---

(1) مختار الأخبار،112.

(2) ينظر : المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب،المختصر في أخبار البشر،تعليق،محمود ديوب، (بيروت،دار الكتب العلمية،د/ت)، 382/2؛ ؛ أبو بكر عبد الله ابن ايبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر،تحقيق:هانس روبرت رويمر، (القاهرة، 1960)، 19/9؛ ابن كثير، البداية، 337/14-338 ينظر كذلك:المقريزي، السلوك،320/2-321؛ ابن تغري بردي، النجوم،125/8-126.

(3) ينظر المقريزي،السلوك،321/2؛ابن تغري بردي،النجوم،123/8

ويغيرون ويفسدون" [1]، وما لبث أنّ قرر غازان العودة إلى بلاده بعد أنّ رتب أمور الشام وترك فيها نائبه قطلوشاه[2].

ولم تكن وقعة (الخزندار) أو(مجمع المروج) نهاية المطاف بالنسبة للاعتداءات المغولية على بلاد الشام، إذ سرعان ما أعقب رحيل غازان أنباء قيامه في عام (700هـ/1300م) بأخذ الاستعدادات العسكرية لغزو الشام ثانية، لاسيما بعد أن وصلته الأخبار بدخول قبجق ورفقائه إلى حضيرة الولاء للسلطان الناصر محمد الذي سرعان ما عفا عنه وقلده نيابة الشوبك[3]، وعلى الرغم من اتفاق رواية بيبرس الدودار مع روايات المؤرخين ممن عاصروه في تفعيل دور العوامل المناخية في الحيلولة دون دخول الطرفين في معركة حاسمة [4]، لكنه في الوقت نفسه يشك أن كان غازان قد رافق جيوشه إلى حلب[5]، كما لا يتفق بيبرس الدودار مع المؤرخين في تحديد أي القوات انسحبت قبل الأخرى، في حين يتفق المؤرخون إلى أن الناصر محمد انسحب أولا إلى الديار المصرية قبل انسحاب قوات غازان [6]، فأن بيبرس الدودار يؤكد على أن قوات الناصر محمد انسحبت بعد انسحاب قوات غازان[7].

---

(1) مختار الأخبار،112.

(2) ينظر ابن ايبك،كنز الدرر، 31/9؛ابن كثير،البداية، 340/13؛ابن تغري بردي،النجوم،127/8.

(3) ينظر ابن كثير،البداية، 344/13 ؛ابن تغري بردي،النجوم، 128/8؛ الحنبلي، شذرات الذهب، 455الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وايلة وقلزم قرب الكرك.ينظر :ياقوت الحموي،معجم،37/3.

(4) مختار الأخبار، 116.ينظر كذلك:أبو الفداء،المختصر، 384/2؛ابن كثير،البداية، 345/13 ؛ابن تغري بردي،النجوم،131/8–132؛ الحنبلي، شذرات الذهب،455.

(5) مختار الأخبار،116.

(6) ينظر أبو الفداء،المختصر،384/2؛ابن تغري بردي،النجوم،129/8.

(7) مختار الأخبار،116.

المراسلات التي جرت بين الناصر محمد وغازان بعد موقعة الخزندار

وبصدد المراسلات التي جرت بين الناصر محمد ومحمود غازان، يشير بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) إلى أن غازان أرسل إلى الناصر محمد مراسلتين الأولى في شهر شوال عام (700هـ/ 1300م) حملها قاضي الموصل كمال الدين موسى بن يونس الشافعي (ت715هـ/ 1315م)[1]، لكن مما يلاحظ أن موقف –بيبرس الدودار– من المراسلة الأولى قد تباين في مؤلفاته من حيث إشارته إلى نص المراسلة والتعليق عليها، ففي كتابه(مختار الأخبار)، نلاحظ أن –بيبرس الدودار– لم يورد نص تلك المراسلة التي كانت قد وردت في بعض المصادر التاريخية والتي لم يظهر فيها سوى الجانب المتعلق بلهجة العتاب التي أرسلها غازان إلى الناصر محمد لهجوم قواته على ماردين [2]، والذي كان بيبرس الدودار قد اكتفى في مؤلفه (مختار الأخبار) بالتعليق الذي يفيد بأن غازان كان قد ناشد الناصر محمد بضرورة كف عساكره عن الإغارة على حدود بلاده بقوله: "**فكان فحواه أخبارا باسلامة، وعتابا لعدم الرغبة في إلمامه، وأشعارا بأنه راغب في مسالمة الإسلام، مطالب بالهداية الدالة على حفظ الذمام**"[3].

ومن جهة أخرى نرى أن بيبرس الدودار في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) قد أورد نص المراسلة بصورة كاملة، ولم تكن هذه المراسلة تحمل في مضمونها جانب العتاب والكف عن الهجوم على حدود بلاد غازان – كما ذكرتها بعض المصادر التاريخية – فحسب، وإنما انفرد في هذا المؤلف بالإشارة إلى أن المراسلة كانت تحمل جانبا لا يستهان به من التهديد والوعيد بالانتقام إذا لم تكف قوات المماليك بالهجوم على أطراف بلاده، وهذا ما أوضحه بيبرس الدودار مفصلا في حديثه عن فحوى نص هذه المراسلة في هذا الجانب بقوله:

"**وها نحن الآن أيضاً مهتمون بجمع العساكر المنصورة ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب وعازمون بعد**

---

(1) المصدر نفسه،116.

(2) ينظر:ابن ايبك،كنز الدرر،53/9 –54؛ابن تغري بردي،النجوم،136/8–137.

(3) مختار الأخبار،117.

الإنذار:"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً"...فتعدوا لنا الهدايا والتحف فما بعد الإنذار من عاذر وان لم يتداركوا الارض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم ومطلوبة بهم عند الله على طول تقصيرهم فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره... وقد اعذر من انذر وانصف من حذر والسلام.. "[1]. وقد نقل القلقشندي في كتابه(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) نص تلك الرسالة كما أوردها بيبرس الدودار في كتابه(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)[2].

ويبدو أن تباين موقف بيبرس الدودار من هذه المراسلة –الأولى– في مؤلفيه (مختار الأخبار) و (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) ، ربما يعكس واقع عدم الأهمية التي لم يكن يعولها بيبرس الدودار على هذه المراسلة من حيث إنّ المراسلة الأولى لم تصدر عنها رد فعل سلبي من جانب غازان وقواته على المماليك، لذلك اعرض في كتابه(مختار الأخبار) عن الإشارة إلى فحوى نص تلك المراسلة. ناهيك عن الأخذ بنظر الاعتبار تباين الفترة التي دون فيها الدودار كتابيه(مختار الأخبار)و(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) وموقعه في تلك الفترة من التدوين من السلطة السياسية في الدولة المملوكية. وعلى وفق ذلك لم يشير بيبرس الدودار إلى نص جواب السلطان الناصر محمد إلى غازان في مؤلفه (مختار الأخبار) على نحو ما انفرد به بيبرس الدودار في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) حين أورد نص الجواب المطول الذي كتبه القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشا في ذلك الوقت والذي تضمن رد الناصر محمد على تهديدات غازان في مراسلته الأولى مفندا فيه أقوال الأخير، وذلك على ما ورد في قوله:"**أما حديث من أغار على ماردين من رجاله بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة والآثام الشنيعة وقولهم أنهم انفوا من تهجمهم وغاروا من تقحمهم واقتضت الحمية ركوبهم في مقابلة ذلك فقد تلمحنا هذه الصورة التي أقاموها عذرا في العدوان وجعلوها سببا...فأما ما التمسوه من**

(1) للمزيد:.ينظر:زبدة الفكرة،355.

(2) ينظر القلقشندي،صبح الأعشى،8/70–72.

الهدايا والتحف فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجل عوض عنها...والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها فنقول اذا جنح الملك للسلم جنحنا لها.."[1].

أما **المراسلة الثانية** فيشير بيبرس الدودار إلى أن غازان أرسل إلى الناصر محمد في الثامن من محرم عام (702هـ/1302م) كتابا آخر، ويبدو أن هذه المراسلة التي ينفرد بالإشارة إليها في كتابه (مختار الأخبار) دون كتابيه الآخرين، والمصادر التاريخية المعاصرة له ؛ كانت قبل أن يبدأ غازان استعدادته العسكرية لخوض معركة فاصلة مع المماليك في (مرج الصفر) . وقد أبدى بيبرس الدودار تعليقه على فحوى تلك المراسلة لما تضمنته تلك المراسلة على حد قول بيبرس الدودار :"**بالمداهنة في صورة المهادنة، والمخادعة في هيئة الموادعة**"[2].

أما فحوى المراسلة كما أوردها بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار): "**جماعة الأمراء اعلموا أن نحن جند الله خلقنا من سخطه، وسلطنا على من أقدم على معصيته، ولكم فيما مضى معتبر، فانظروا إلينا بعقولكم، وسلموا إلينا أموركم قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطاء، فسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا رواشق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، والعساكر لدينا لا تمنع، والحصون من أيدينا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع، لأنكم أظهرتم البدع، واستحللتم الحرام، وأكلتم مال الأيتام، وانتم أهل الظلم والعدوان، فملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، ونحن ملوك الأرض شرقا وغربا، ونأخذ أموالكم سلبا ونهبا، ونأخذ منكم كل مدينة غصبا، وانتم تقولون إن نحن الكفرة، وانتم عندنا الفجرة، فقد سلط على الكفرة على الفجرة من له الأحكام المدبرة، والأمور المقدرة، وقد أنصفناكم إذ كاتبناكم والسلام**"[3].

---

(1) للمزيد ينظر :زبدة الفكرة،356-362.

(2) ينظر مختار الأخبار،120.

(1) المصدر نفسه،120.

وبالنظر لأسلوب التهديد الذي حملته مراسلة غازان، فقد أورد بيبرس الدودار نص الجواب الذي بعثه الناصر محمد مع الأمير سيف الدين ازدمر المجيري والقاضي عماد الدين بن السكري خطيب الجامع الحاكمي بالقاهرة.

أما نص جواب تلك المراسلة على وفق ما أورده بيبرس الدودار في مؤلفه:- "**أما بعد، فأنك عبد غلب الهواء على عقلك فأراك القبيح حسنا، والسمج مستحسنا، فأطمعك املك الخائب في نيل النجوم، وجسرك طمعك الكاذب فبادرت إلى قنص الأسود بالهجوم، لتعلم اذا نزل بك الخطب أن ليس لك منه ولي ولا ناصر، ولو كان لك أمير أو عندك عاقل مشير لاشار عليك بطلب العفو عما اجترمته من الجريمة...فخذ ما اشترطناه عليك، والتزم مارسمناه إليك ، فقد غزوت غزوة لا انفصال إلا بالتزامها، وهفوت هفوة تؤذن لغزوتك بانفصامها، ولولا ما جلونا عليك من العلم، وعجلنا عليك من الحلم، لعاجلناك بالعقوبة قبل الإنذار، فحذار من المخالفة حذار**"[1].

معركة مرج الصفر:

اكتسب ما دونه بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) من نصوص عكست أهمية الدور الرئيسي والفعال الذي لعبه الأخير في خضم مجريات أحداث معركة (مرج الصفر)، متل في حقيقة الأمر الواقع العملي لمشاركته في المعركة، إذ تتفق المصادر التاريخية على أن بيبرس الدودار كان قد جرد مع خمسة من الأمراء في هذه الوقعة وهم كل من الأمير ركن الدين بيبرس أستاذ الدار والأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ الدار والأمير سيف الدين طغريل الايغاني والأمير سيف الدين كراي المنصوري السلحدار والأمير شمس الدين سنقر جاه المنصوري[2]، وهذا ما صرح به بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار) بقوله :

---

(2) المصدر نفسه،120-121.

(1) ينظر شهاب الدين النويري،نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق:فهيم محمد علوي شلتوت،(القاهرة،دار الكتب،د/ت)،32/26-27؛ابن ايبك، كنز الدرر،9/82؛ قطب الدين أبو

"**وكنت من جملة العديد ، وزمرة هذا التجريد، فاستخرنا الله في الحركة، وسر نا على اليمين والبركة، ورحلنا من مسجد التبن** [1] **في الثامن عشر من رجب الفرد**"[2].

وبالرغم من أهمية موقعة شقحب بالنسبة للانتصار الذي حققه المماليك في عدد قواتٍ لم تتجاوز ألفاً وخمسمائة مقاتل قياسا بقوات المغول التي بلغت أربعة ألاف مقاتل على حد تقدير الروايات التاريخية [3]، بوصفها الأساس الذي هيأت للنصر الكبير في شقحب حتى أن احد الباحثين المحدثين وهو **عمر عبد السلام تدمري** محقق كتاب (الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر) عدها"**مقدمة للموقعة ومفتاحها، وهي جزء لا يتجزأ من وقائع مرج الصفر**"[4]،

لكن أهمية ما قدمه بيبرس الدودار عن هذه المعركة قد تباين في كتبه الثلاثة، ففي الوقت الذي كرس فيه الأخير في كتابيه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و (التحفة الملوكية في الدولة التركية) جانبا من حديثه في تفصيل وقائع هذه المعركة التي لم ترد بلسم شقحب، وإنما وردت باسم عرض، وعدها من المعارك التي مهدت للحسم في المعركة الفاصلة في مرج الصفر وهذا ما أشار إليه في كتابه (التحفة الملوكية في الدولة التركية) بقوله :

الفتح موسى بن محمد بن احمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (حيدر اباد الدكن، الهند،1954)7/4.

(2) مسجد التبن:يعرف هذا المسجد اليوم بزاوية الشيخ محمد التبري جنوبي سراي القبة بضواحي القاهرة،بالقرب من محطة حمامات القبة.ينظر:ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،131/8.

(3) مختار الأخبار،123.

(4) ينظر الذهبي،دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، (القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974)،208؛مؤرخ مجهول،تاريخ سلاطين المماليك،نشره زترستين،(ليدن،1919)،110.

(5) ابن عبد الظاهر،الروض الزاهر،24.

"**وكانت هذه المقدمة سببا لنتائج الظفر، وإيجاب النصر المنتظر** "[1]، كما أكد على أهمية النصر الذي تحقق في تلك المعركة في كتابه(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) بقوله:" **وكانت هذه مقدمة لنتيجة الظفر وقضية موجبة للتأييد المنتظر**"[2]، لكن بالرغم من ذلك فإنّ بيبرس الدودار كان قد أعرض عن الحديث عن وقائع تلك الموقعة في كتابه (مختار الأخبار)، وكرس الجانب الأكبر من اهتماماته للحديث عن معركة مرج الصفر . وربما يعود ذلك إلى أمرين الأول: طابع الاختصار الذي غلب على منهج بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار) وإعراضه عن تكرار الروايات التي شدد عليها في مؤلفيه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية)، والثاني:اهتمام بيبرس الدودار برواية الأحداث التي شهدها بنفسه وحقق فيها المماليك الانتصار على المغول مع مراعاة أن الدودار كان احد المساهمين في ذلك النصر وهذا ما يعكس سعيه إلى تفصيل وقائع وملابسات تلك المعركة. وهذا ما يمكن ملمسه في عرضه لوقائع معركة مرج الصفر بوصفه كان احد المشتركين في المعركة؛ إذ يشير بيبرس الدودار في كتابه (مختار الأخبار) وفي معرض حديثه عن موقعة (مرج الصفر) أن غازان أشاع بين الناس عن عزمه للتوجه إلى الشام"**ليقرر الصلح بينه وبين السلطان خداعا منه ومكرا ودهاء ونكرا**" [3]، ولما كان الناصر محمد ليس بأقل حماسا من غازان لخوض غمار معركة جديدة مع قوات الأخير الذي كان قد زحف بقواته إلى الرحبة، ولكن يبدو أن الأخير انسحب من قيادة العمليات العسكرية قبل بدء المعركة. وهذا ما أشار إليه بيبرس الدودار – و**أنّ** كان في كتابيه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية)، لم يفصح عن الدافع الذي كان وراء انسحابه من قيادة الجيش المغولي، بيد أنّه في كتابه (مختار الأخبار)

(1) التحفة الملوكية في الدولة التركية،تقديم:عبد الحميد صالح حمدان،(القاهرة،الدار المصرية اللبنانية،1987)،165.

(2) زبدة الفكرة،374.

(3) مختار الأخبار،123.

يعول ذلك الانسحاب المفاجئ إلى عامل المرض الذي آلم بغازان[1]، الأمر الذي دفع الأخير إلى تسليم قيادة الجيش إلى نائبه قطلوشاه[2].

ومهما يكن من أمر انسحاب غازان عن قيادة العمليات العسكرية في الشام، فـإنّه كان قد أرسل قبل رحيله عن الرحبة نسخة كتاب إلى أهالي الشام"**يستغويهم ويستميلهم عن مضافرة أهل مصر ويخدعهم**"، وهذا ما أورده بيبرس الدودار في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) [3]، إلا أنّه لم يشير إلى نص تلك المراسلة في مؤلفه (مختار الأخبار) ؛وإنما خاض بيبرس الدودار في كتابه(مختار الأخبار) في تفصيل وقائع (مرج الصفر) وبوصفه شاهد عيان للمعركة، فإنّ روايته يغلب عليها طابع التصوير الدقيق لواقع الخوف والذعر الذي أصاب الجيش المملوكي من جراء تأخر وصول الناصر محمد بقواته إلى دمشق، والذي كان قد قوى من عزم قطلوشاه على مواجهة المماليك، إذ ينفرد بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) دون كتابيه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية) والمصادر التاريخية المعاصرة في الإشارة إلى الدور الذي اضطلع الأخير في تنظيم صفوف الجيش المملوكي الذي كان قد هاله أمر تأخر وصول الناصر محمد بقواته إلى ساحة المعركة، وتثبيته لمعنويات القوات المملوكية لمواصلة العمليات العسكرية ضد المغول بعد وقوفه على رسائل تفيد في مسألة اقتراب وصول الناصر محمد بقواته إلى مرج الصفر، وذلك وفقا لقوله:"**وبينا أنا (بيبرس الدودار) مفكر في هذا الأمر ، م ر بي بريد راكض، فسءلته عن السلطان، فأخبر بأقترابه ووصوله في اطلابه، فقصدت تحقيق روايته، والوقوف على كتبه،...فلما وقفت على الكتب، وتيقنت وصول السلطان عن كثب قراتها على الأمراء ، وأخذت في رد العساكر التي قصدت التأخير، وعجلت إلى الرجوع المسير، ليعودوا إلى مرج الصفر، فتراجعوا إليه أولا فأولا،**

---

(1) المصدر نفسه،123.

(2) ينظر النويري،نهاية الإرب، 124/32؛ بدر الدين العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،تحقيق:محمد محمد أمين،(القاهرة،1992)226/4.

(3) حول نص كتاب غازان إلى أهالي الشام. ينظر: زبدة الفكرة،368-372.

وسكن بعض من كان مجفلا، وبعضهم استخفه الروع وتم سائرا، حتى أن أوائل الراجعين إلى ورائهم وصلوا إلى قرب مولانا السلطان، فلما رآهم العسكر الذين معهم انزعجوا وارتاعوا، وكاد أكثرهم يفر قبل المصاف لولا ما تدارك الله به من الألطاف"[1].

ورغم أن بيبرس الدودار لا يتناول مفصلا العوامل التي شجعت قوات قطلوشاه على تكثيف عملياته العسكرية ضد المماليك والتي يمكن إحالتها إلى التفوق العددي من جانب قوات المغول، إذ يشير المؤرخان– المقريزي وابن تغري بردي – إلى أن قوات المغول كانت قد بلغت زهاء ثمان ين ألف فارس[2]، وعلى الرغم من أن بيبرس الدودار لم يُشِرْ إلى مجموع عساكر جيش المغول في كتابيه (مختار الأخبار) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية)، بيد انه أشار في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) إلى أن قوات المغول كانت قد بلغت تسع ين ألف مقاتل[3]. لكن من جانب آخر فإنّ المصادر التاريخية أعرضت عن الإشارة إلى مجموع قوات المماليك، ويبدو أن مجموع قوات المماليك كانت قبل وصول قوات السلطان الناصر محمد أقل من قوات المغول، لكن بوصول الناصر محمد بقواته إلى ساحة المعركة والتي يظهر أنها تجاوزت في عددها قوات المغول، وهذا ما أوضحه بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) بقوله:" **فلما شاهد العدو تلك الجيوش الممتدة، والجنود العظيمة العدة والعدة، وتقدموا أليهم، وبذلوا السيوف فيهم، فانكسروا لوقتهم وولوا مدبرين، وانقلبوا خاسرين، وفر أكثرهم في تلك العشية مع مولاي...واتى المسلمون عليهم، ونهضوا اليهم ونالوا منهم قتلا وسلبا، وأسرا ونهبا"**[4].

---

(1) مختار الأخبار،124.

(2) ينظر:المقريزي، السلوك،355/2؛ ابن تغري بردي، النجوم،157/8.

(3) زبدة الفكرة،372.

(4) مختار الأخبار،125–126.

والواقع – وطبقا لما أورده بيبرس الدودار – لم يكن وصول الناصر محمد العامل الوحيد الذي حسم المعركة لصالح المماليك، إذ ينفرد في كتابه (مختار الأخبار) بالإشارة إلى دور (جوبان بن تداون) أحد قواد ومقدمي غازان الذي أدى دورا كبيرا من حيث تفعيل عوامل هزيمة المغول في مرج الصفر من حيث ع دم التزامه بالخطة التي رسمها غازان له حين أمره بالمكوث مع قواته في حمص، إذ يشير بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) إلى أن جوبان تقدم إلى قطلوشاه قائلا :"**أريد أن تعطيني عسكرا أهجم به على المسلمين، فما وافقه على ذلك، فعاتبه وقال له : أنت الذي عزرتنا وسقتنا إلى هاهنا، وخالفت ما رسم لك به غازان، فأنه لم يأمرك بالتقدم إلى هذا المكان، بل أوصاك أن تقيم بحمص ولا تتعداها ولا تتقدم الى مكان سواها**"[1].

وهكذا تمكن المماليكُ من إحراز انتصار حاسم على المغول في مرج الصفر حتى أن قوات المماليك طاردت فلول الجيش المنهزم إلى نهر الفرات [2]، كما ينفرد بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) بالإشارة إلى حالة الجيش المغولي بعد انهزامه وعدد عساكرهم بعد وصولهم إلى بلادهم بالقول :"**أن مولانا السلطان جهز البعوث في آثارهم، فتبعوهم إلى أن تجاوزوا الرحبة، وقد تمزقوا كل ممزق، وتشتت شملهم وتفرق، وبلغني أن الذين عدوا منهم بحر الفرات غرق أكثرهم، ولم ينج منهم إلى بلادهم إلا القليل لأنهم هلكوا عطشا وجوعا، ووصل قاصد واخبر بأنه لم يصل إلى بلادهم من كل تومان إلا شرذمة يسيرة، وعدة حقيرة، ثم تحقق الخبر بأنه لم يصل إلى بلادهم إلا زهاء ثلاثين ألفا لا غير**"[3].

---

(1) المصدر نفسه،125–126.

(2) أبو الفداء، المختصر، 388/2؛ الذهبي،ذيل العبر في خبر من غبر، تحقيق:محمد رشاد عبد اللطيف وعبد الستار، أحمد فراج، (الكويت،د/ت)، 20 ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،نشره:ادغار بلوشيه،(باريس،د/ت)،85/3؛.

(3) مختار الأخبار،126–127.

ويعلق الصفدي (ت 764هـ / 1362م) على حالة المغول بعد انهزامهم في تلك المعركة بقوله :"**أنّه من حين ظهر جنكيزخان ما جرى للمغول بعد واقعة عين جالوت ولا يومنا هنا مثل واقعة شقحب، كادت تأتي على نوعهم فناء، فأن الموت أهل بهم ورحب، وما نجا منهم إلا من حصنه الأجل، أو اختار الأسر ما وجد من الوجل**"[1].

أما السلطان الناصر محمد فلقّه دخل دمشق وبصحبته الخليفة المستكفي بالله والأمراء في موكب ضخم إلى دمشق والناس مبتهجين بذلك النصر، ويصف بيبرس الدودار ذلك الابتهاج بصورة أكثر تفصيلا في مؤلفه (مختار الأخبار) عنه في كتابيه(التحفة الملوكية في الدولة التركية) و(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) اللذين لا يشير فيهما إلى مسألة الكتاب الذي أرسله الناصر محمد بعد انتصاره على المغول إلى غازان يطلب منه إعادة الرسل الذين كان غازان قد تحفظ عليهم بقوله"... **وفي الخامس والعشرين وصل الركب السلطاني إلى دمشق، فخرج أهلها كافة لاستقباله بعد نصرته على التتار، وفرحوا بإيابه إليها واستقلاله، وكان يوما مشهودا، ومن جملة الأعياد معدودا، وجهز السلطان إلى غازان كتابا يذكره فيه، ويعرفه ان مكر الله به كان خيرا من مكره، ويوعز إليه بأن يرسل الرسل الذين عنده، ولا يحوج بسببهم إلى كتاب آخر بعده**"[2].

ويشير بيبرس الدودار في مؤلفه(مختار الأخبار) إلى أن مدة إقامة الناصر محمد في دمشق بلغت ثمانين يوما، عاد بعدها برفقة الخليفة المستكفي بالله وأمرائه وقواته إلى القاهرة، والناس مبتهجين بعودة القوات المملوكية ظافرة، نظم فيها الشعراء أشعارا في تمجيد ذلك النصر[3].

---

(1) ينظر:أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق:علي أبو زيد وآخرون،(بيروت،دار الفكر المعاصر،1998)،6/4.

(2) مختار الأخبار،127.

(3) المصدر نفسه،128.

أما غازان فقد عاد أدراجه إلى بلاده وهو يجر أذيال الهزيمة ويشير موير أن الأخير –غازان–حاول أن يشكل جيشا جديدا لغزو بلاد الشام ثانية وهو يأمل أن تمد أوربا له يد العون لكن المنية عاجلته قبل أن يخرج مشروعه إلى حيز التنفيذ[1].

وفي مصر يشير بيبرس الدودار في مؤلفه (مختار الأخبار) إلى مجموعة متنوعة من الأشعار التي نظمت في تمجيد نصر المماليك على المغول منها قصيدة طويلة من تأليف بيبرس الدودار نفسه أرسلها إلى السلطان مهنئا ومبشرا بالنصر جاء فيها:

خلقت مظفرا برا وبحرا وعزمك ماضيا شاما ومصرا
وفكرك ثاقب في كل أمر ورايك اسعد الآراء طرا
وما سارت ركابك في جيوش قسمتهم يد العدوان قسرا
ولا كفت المقدم في خميس فعاد بخيبة او خاف كسرا
ولا وليت عن حرب هزيما ولو كان اللقاء بجيش كسرى[2]

(1) ينظر: the mamelukm, p.71.

(2) المصدر نفسه،129.

The Magolia-Mamlokia Relations in the Region of Al-Nasir Mohammed Al-Mamlook: according the Norel of Bibris Al-mensoor:in his book (mukhtar Al-Akhbar)

*Zahida Mouhammed Taha

Abstract

The book (Mukhtar Al –Akhbar) for Rukin Al-Din Al-Mansouri which is known by (Al-Dodar), is one of the well-wnown history sources, which deals with the history of the Mamluk –Mingol relationships during the Mamluk navy period.

The most important thing about this book is that this author lived during the period of Sultan Al-Nasar Mohammad Bin khalawin who is one of the best Sultans of the Mamluk state. the author attended the biggest military wars of the Mamluk against Magul and crusade. Besides the author shared in the Mamluk state specially during the Al-Nasar Mohamad second part of his ara.

All these events makes this book so important for it is considered the pioneer in dealing with the historical facts about the wars between Mingols and Mamluks and specifically about the battle (Muriage al Suffar)in which the author described scenes from the battle that he actually attend and shared , that what makes the information about the battle so impotant. Besides the author mentioned about the letter during (1302-702) between Al-Nasar Mohammad and Mahmmod Ghazan before the battle (Muriage Al Suffar) started.

* Dept. of Social Sciences/ College of Arts/ University of Mosul.